النقد الحواري

تمهيد:

يقوم هذا النقد على نظرية الناقد السوفييتي "ميخائيل باختين (1895-1975)"، والإجراءات المنهجية التي دعا إليها في دراسة الرواية. وكان باختين قد وضع أسس هذا النوع من النقد في العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن، غير أن انتشاره من خلال اللغة الإنجليزية لم يحدث إلا في الثمانينات.

- أولا: مفهوم الحوار عند باختين:

كان باختين يعني بالحوار "نموذجا للإبداع يفترض أن تفاعل صوتين مجسدين أو شخصيتين على الأقل شرط لازم للوعي الأصيل". بمعنى أن تنوع لغات مجتمع ما يتجسد في الرواية عبر خطابات الشخصيات الروائية، حيث تستطيع هذه الشخصيات بفعل أقوالها وتدخلاتها في مسار السرد عن طريق الحوار أن تكسر نية الكاتب، وأن تعتبر أقوالها وملفوظاتها بالنسبة إليه إلى حد ما لغة ثانية، وتمارس أقوال الشخوص الروائية تأثيرها في خطاب الكاتب من خلال إدخال التعدد اللغوي على روايته.

- ثانيا: أسس النقد الحواري عند باختين:

استمد باختين أسس نظريته من دراساته في الرواية، خاصة ما أنتجه الكاتبان الروسيان تولستوي ودوستويفسكي. ففي عام 1929م أصدر باختين كتابه "إشكالات الشعرية الدستوفسكية"، وفيه بين أن روايات دوستويفسكي تتميز بتعدد الأصوات وتمتعها بحرية الاختلاف. حيث يسمح الكاتب لمختلف الشخصيات بالتعبير عن اختلافها بعيدا عن هيمنته كروائي. وهو ما يجعل رواياته حوارية، على عكس ما نجد لدى تولستوي الذي يهيمن لديه صوت المؤلف على صوت الشخصيات، فيخضعها لرؤيته، مما يجعل رواياته أحادية الصوت.

- ثالثا: النزعة الكرنفالية:

يشير "تزفيتان تودوروف" أن الاختلاف الذي تنبع منه الحوارية كامنا في الإنسان نفسه، لأنه تعددي بالضرورة ومتميز بهذه التعددية من الناحية الأنثروبولوجية. على أن هذا لم يحل دون قيام نزعة توحيدية مقاومة للحوار، ومضادة للتعدد. وهو ما أدى إلى استمرار نوع من الصراع بين الحوارية بتعددها والرغبة التوحيدية أو الوحدوية في الهيمنة، لا على مستوى الرواية أو الأدب فحسب، وإنما على مستوى الثقافة إجمالا. ومن الأمثلة التي يضربها باختين على هذا الصراع ما يسميه بـ "النزعة الكرنفالية" التي تسعى إلى زعزعة السلطة بالهزء منها، وإشاعة روح الفوضى التي تحدث في الاحتفالات الكرنفالية في أوروبا وخارج البلدان المسيحية.

يقصد بالحوارية عند باختين ذوبان ثقافتين، هما الثقافة الشعبية وثقافة النخبة. حيث يظهر صوت المقموعين والمهمشين داخل الخطاب الروائي، "حيث تلغى القيود والقوانين، والمحظورات، وتلغى الألقاب، والطبقات الاجتماعية". وبذلك يتحقق مبدأ العدل والمساواة بين البشر.

- رابعا: الحوارية في النقد المعاصر:

يمارس النقد الحواري تأثيرا واسعا في الساحة النقدية الغربية. ويعود الفضل في ذلك إلى جهود الناقد تودوروف والناقدة جوليا كريستيفا. وكان دور كريستيفا حاسما لكونها أول من قدم مفهوم الحوارية إلى الساحة الفرنسية، وذلك في مقال تحت مسمى "النصوصية أو عبر النصية". وقد جرى تقديم هذا المقال في فترة حاسمة من تاريخ النقد المعاصر، إذ أنه تزامن مع مرحلة الانتقال من البنيوية إلى ما بعد البنيوية. وتعرف جوليا كريستيفا النصوصية بقولها: "يتألف كل نص من فسيفساء من الاقتباسات، كل نص امتصاص وإعادة تشكيل لنص آخر".

وفي الختام يمكن القول أن مفهوم الحوارية عند باختين قد ساهم في تطوير نظرية الأدب، وأخرج النص من سجن البنيوية إلى رحاب التأويل من خلال التركيز على خارج النص، وتفاعل النصوص، إلى أن تطورت الحوارية عند تودوروف من مفهوم الحوار بين النصوص والتعدد اللغوي إلى القول بحوار الحضارات والثقافات المختلفة.

مراجع المحاضرة:

- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000.